ترجمة الإمام ابن القيّم[١]

هو الإمام المحقق الفقيه محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن حريز الزُّرَعي الدمشقي، المشهور بابن قَيِّم الجَوزيَّة، نسبة إلى مدرسة الجوزية التي كان أبوه قيِّماً عليها.

ولد ابن القيم في السابع من صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة في قرية زرع من قرى حوران، ونشأ في بيت علم وفضل، وتلقى علومه الأولى عن أبيه، وتحول إلى دمشق وتتلمذ لطائفة من علمائها. ولقد أُعجب بشيخ الإسلام ابن تيميَّة إذ التقى به سنة ٧١٢هـ، ولازمه طوال حياته، وتتلمذ له، فنهل من علمه الواسع، حتى كان يأخذ بأكثر اجتهاداته وينتصر لها، وحمل لواء الجهاد بعد وفاة شيخه ابن تيمية رحمه الله تعالى سنة ٧٢٨هـ، وظل ابن القيم

(١) تنظر ترجمته في: «الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب ٢/ ٤٤٧-٤٥٢، و«الدرر الكامنة» لابن حجر ٣/ ٤٠٠-٤٠٣، و«البداية والنهاية» لابن كثير ١٤/ ٢٤٦-٢٤٧، و«شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي ٦/ ١٦٨-١٧٠ (وفيات ٧٥١)، «الأعلام» للزركلي ٦/ ٥٦.

يخدم العلم إلى أن توفي ليلة الخميس في الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ٧٥١هـ، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه.

ومن العلماء الذين أخذ عنهم العلم: أبوه، فقد أخذ عنه علم الفرائض، لأنه كان مبرِّزاً فيه، وسمع الحديث من الشهاب النابلسي والقاضي تقي الدين بن سليمان، وأبي بكر بن عبد الدائم وغيرهم.

وأخذ العربية عن ابن أبي الفتح البعلي، وتلقى الأصول والفقه على الشيخ صفي الدين الهندي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ إسماعيل بن محمد الحراني.

وقد تلقى عنه كثيرٌ من أهل العلم والفضل، وانتفعوا به كثيراً، ومنهم:

الإمام الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، والحافظ عماد الدين بن عمر بن كثير الدمشقي صاحب التفسير المعروف، والشيخ الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الجمّاعيلي الصالحي.

وصنَّف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلوم، وكان شديد

المحبة للعلم وكتابته، ومطالعته وتصنيفه، واقتناء كتبه، ومن تصانيفه: كتاب «تهذيب سنن أبي داود»، و«الطرق الحكمية في السياسة الشرعية»، و«زاد المعاد في هدي خير العباد»، و«بدائع الفوائد»، و«الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية» وهي القصيدة النونية، و«إغاثة اللهفان في مكايد الشيطان»، وغيرها من الكتب النافعة.

تفقه ابن القيم في المذهب الحنبلي، وبرع فيه وأفتى، وتفنن في علوم الإسلام، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه، وبأصول الدين، وإليه فيها المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، وبالفقه وأصوله، وبعلوم العربية، وله فيها اليد الطولى، وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف، وإشاراتهم ودقائقهم، وله في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى.

امتُحن وأوذي مرات، وحُبس مع الشيخ تقي الدين ابن تيميّة في المرة الأخيرة في قلعة دمشق، منفرداً عنه، ولم يُفرج عنه إلا بعد موت الشيخ.

وكانت دعوته إلى الأخذ بكتاب الله، وسنة رسول الله

الصحيحة، وطرح ما يخالفها، وحارب الجمود والتقليد الأعمى، وحذر مما تسرب إلى الفكر الإسلامي من خرافات التصوف، ومنطق يونان، وهو يُعدُّ بحق من زمرة المفكرين المصلحين، الذين تركوا أكبر الأثر في هذه الأُمة. فرضي الله عنه وأرضاه.

توفي رحمه الله وقت عشاء الآخرة ليلة الخميس في الثالث عشر من رجب سنة إحدى وخمسين وسبع مئة، ودُفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق، وشيَّعه خلق كثير، رحمه الله رحمة واسعة.

obeikandl.com

أهمية كتاب «إعلام المُوقِّعين»:

يُعَدُّ كتاب «إعلام الموقِّعين عن ربِّ العالمين» من أهمِّ وأفضل الكتب التي صنَّفها الإمام العلّامة ابن القيِّم رحمه الله تعالى، لِمَا اشتمل عليه من المواضيع التي ينتفع بها المسلمون في كلِّ زمان ومكان، حيث كان غَرضُه ـ رحمه الله ـ من تصنيفه لهذا الكتاب هو دعوة المسلمين إلى نَبْذ الاختلاف والتحذير من مدى خطورته على الأُمّة، وبيان أنه هو السَّبيل إلى تفكُّكِها وتشرذُمها، وأنه لا يستقيم للمسلمين أمر دينهم ودُنياهم إلّا بالاقتداء بالسَّلف الصالح وبالنَّهج الذي ساروا عليه، فدعا ـ رحمه الله ـ إلى تَرْك التقليد والتعصُّب الذي كان سائداً في فترات متعدِّدة من تاريخ هذه الأُمة، وخاصَّة عصر المصنِّف، ولهذا فقد أوضح وبيَّن في هذا الكتاب السَّبيل للخلاص من هذه الآفة الخطيرة من خلال العمل بالنُّصوص، وإبطال حِيَل المتلاعبين بالدِّين.

ومن هنا نرى أنه ـ رحمه الله ـ حثَّ على اتِّباع السُّنة النبوية واقتفاء أثر الصحابة الكرام، لأنهم رضوان الله عليهم ـ كما قال

رحمه الله ـ: «وَرَدُوا رأسَ الماء من عين الحياة عَذْباً صافياً زُلالاً، وأيَّدوا قواعدَ الإسلام، فلم يَدَعوا لأحدٍ بعدهم مقالاً، فتحوا القلوبَ بعَدْلهم بالقرآن والإيمان، والقُرى بالجهاد بالسَّيف والسِّنانِ، وأَلْقَوا إلى التابعين ما تَلقَّوه خالصاً صافياً، وكان سَنَدُهم فيه عن نبيِّهم ﷺ، عن جبريلَ، عن ربِّ العالمين، سنداً صحيحاً عالياً، وقالوا: هذا عَهدُ نبيِّنا إلينا وقد عَهِدْنا إليكم، وهذه وصيَّةُ ربِّنا وفَرضُه علينا، وهي وَصيَّتُه وفَرضُه عليكم، فجرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم، واقتَفَوا على آثارهم صراطَهم المستقيمَ، ثم سلك تابعو التابعين هذا المسلكَ الرَّشيدَ، ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]، وكانوا بالنِّسبة إلى مَن قَبلهم كما قال أصدق القائلين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة]» هذا ما كان يرجوه ـ رحمه الله ـ من وراء تأليفه لهذا الكتاب، وهو دعوة الأمّة للاقتداء بالسَّلف الصالح، من أجل القضاء على الاختلاف الذي ربّما يقودها إلى التشرذم والضَّعف.

ثم إنه دعا في كتابه هذا لأنْ يكون دين الله سبحانه وتعالى

أجلَّ في صدور الأُمّة، وأعظمَ في نفوسها، مِنْ أن تُقدِّم عليه رأياً أو فِكْراً أو تقليداً أو قياساً، ولا يكون ذلك إلّا من خلال الزُّهد في التعصُّب للرِّجال، والوقوف مع الحُجَّة والاستدلال، والسَّير مع الحقِّ حيث سار، وهو في كلِّ هذا لم يَغفُل عن الدَّعوة إلى الاجتهاد، وإعمال الفِكْر للوصول إلى الحقِّ أينما كان.

وقد بيَّن كذلك ـ رحمه الله ـ في كتابه هذا القواعد والأصول التي قامت عليها آراء الأئمَّة والفقهاء، وهي ذات الأصول التي بنى عليها كتابه هذا، فأوضح بأنه لا ينبغي أن تخرج عن الكتاب والسُّنة والإجماع ورأي الصحابة ثم التابعين وتابعيهم، والقياس وغير ذلك من القواعد والأصول التي أجمع عليها الأئمَّةُ ودَعَوا إلى التمسُّك بها.

فلهذا كلِّه يتَّضح بأن كتابه هذا، كان من أهمِّ وأجلِّ الكتب التي جاءت في هذا الباب، وكان من أهمِّ ما توسَّع فيه أبواب الرِّبا، وسدّ الذرائع، والحِيَل، والقول بالرأي والقياس، ثم وقف عند الشروط التي ينبغي توفُّرها في الذي يتصدر للفتوى، وبيَّن أهمية هذه المنزلة، كلّ ذلك بالاعتماد على النصوص التي كان يستنبط منها الأحكام، مع بسط الأدلة على المسائل التي هو بصَدَد الوقوف

عندها، مع ذكر أقوال السلف فيها، إلى جانب عرض آراء المخالفين وبيان ضعفها، دون التعصُّب لمذهب معيَّن، كيف لا وهو ـ رحمه الله ـ من أشدِّ الداعين إلى الاجتهاد إذا ما دعا الأمرُ إلى ذلك في سبيل الوصول إلى الحقِّ.

ثم إنه استفاض في الكلام على القياس وأدلته مع التَّمييز بين الصحيح منه والفاسد؛ ولهذا فقد أطال في الكلام على الحِيَل فذكر أنواعها وبيَّن قُبحَ المحرَّم منها وسوء عاقبتها، لأنها تقود إلى استحلال ما حرَّم الله، وإنما كان تركيزه ـ رحمه الله ـ على ذكر أبواب الحِيَل لدخولها في كثير من المسائل التي ينبغي التنبيه عليها والتحذير من الوقوع فيها.

وإن استقصاء الأبواب التي تدخل فيها الحِيَل أكبر من أن تستوعبها هذه العُجالة، إضافة إلى الموضوعات الأخرى التي اشتمل عليها هذا الكتاب الذي لا غنى لطلبة العلم والعلماء عن مثله؛ لكثرة فوائده، وعظيم نَفعِه للعالم والمتعلِّم على السَّواء، فجزى الله مصنِّفَه خير الجزاء، وأجزل له المثوبة والأجر العظيم، والحمد لله رب العالمين.